معرفة قصد المتكلم في تحليل الخطاب عند سيبويه.

م.د. محمد صلال وذاح

مديرية التربية في كربلاء

م.د. حيدر فاضل عباس

مديرية التربية في كربلاء

Knowing the intention of the speaker in analyzing the discourse in Sibawayh's work.

Dr. Mohammed Sallal Wthah

Directorate of Education in Kerbala

Dr. Haider Fadhil Abbas

Directorate of Education in Kerbala

ملخص البحث

يهدف البحث إلى بيان جزئية مهمة من جزئيات الخطاب وأعني بها (قصد المتكلم) التي يُستند إليها بنحو كبير في معرفة المعنى وتوجيه التركيب اللغوي، فيُعرف عن طريقه تحليل الخطاب ومعناه ومسوغات استعماله، وقد كانت الإشارة إلى قصد المتكلم كعنصر مهم من عناصر الخطاب وآلية تفسيره للكلام في الوقت نفسه، وأثره الذي يحدثه في الكلام يتحصّل عند سيبويه في أمرين:

الأمر الأوَّل: نوع يتعلق باختلاف الصياغات التركيبية، وما يحدثها من تغييرات أو يجيء على خلاف من ظاهر القياس في الاستعمال من لدن المتكلم لقصده، وتفصيل ذلك بعد أن نعرف الأثر الآخر مما يحدثه قصد المتكلم.

الأمر الثاني: نوع يتعلق بوحدة الصياغات التركيبية، ويتعلق هذا النوع بالتغيير الدلالي الحاصل من التنوعات التي يحدثها القصد من التغييرات الصوتية من لدن المتكلم، فلا يمكن معرفة الدلالة إلَّا بعد أن تُنسب إلى قصد المتكلم، من هذا وذاك أثمر البحث عن أهمية قصد المتكلم بوصفه وسيلة من وسائل التقعيد النحوي، وعنصر رئيس من عناصر الاتصال اللغوي، وركن من أركان عملية الفهم والإفهام؛ فهو يبرز مفصلًا مهمًا من مفاصل الخطاب التي لا يمكن الاستغناء عنها جاء به سيبويه في تفسير الاستعمال اللغوي وتسويغه؛ فيكون الاحتكام إلى القاعدة النحوية ذا طابع تفسيري للاستعمال اللغوي.

Abstract

The purpose of the research is to identify an important part of speech, namely the speaker's intention which is largely based on in knowing the meaning and directing the linguistic structure, through which the discourse analysis, its meaning and justifications for its use are known. At the same time, the effect it has on speech is evident in Sibawayh in two ways:

The first is a type related to the difference in syntactic formulations, and the changes that occur in them or come in a contradiction from the apparent analogy in use by the speaker's intention, and its detail after knowing the other effect of what the speaker's intention causes.

The second matter: a type related to the unity of syntactic formulations. This type is related to the semantic change that occurs from the variations caused by the intent of the phonemic changes from the speaker, so the connotation can only be known after it is attributed to the speaker's intent.

From this and that, the research resulted in the importance of the speaker's intent as a means of grammatical recitation, a major element of linguistic communication, and a cornerstone of the process of understanding. It highlights an important and indispensable part of the discourse that Sibawayh came up with in explaining and justifying linguistic use. The invocation of the grammatical rule is of an explanatory nature for linguistic use.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعدُ:

فقد كان للخطاب أثرٌ كبير في كلِّ ما ينِدُّ عن علاقة بعملية التواصل اللغوي، ولم يقتصر الدرس اللغوي القديم على بيان ذلك الأثر وصفًا، بل تعدى حدود الوصف ليصل إلى التطبيق ليُكمِل عن طريق قصد المتكلّم معرفة المعنى وتوجيه التركيب اللغوي، وهذا المنظور أتمّ من أن يكون الخطاب متتاليات جملية أو تسلسل جملي لا يراد منه سوى السرد.

ويطالعنا سيبويه في بادرة لمكون من مكونات الخطاب وأثره في تفسير المعنى، وتتجلى هذه البادرة في قصد المتكلم عندما يكون إفادته للمخاطب بمعلومات أو أخبار لا يعرفها غيرهما وهو ما يحقق مبدأ التعاون في معرفة المعنى من قصد المتكلم.

وقد كان البحث على تمهيد ومطلبين سبقتهما مقدمة:

تضمن التمهيد مفهوم الخطاب، وبيان أبعاده الأساسية، أمَّا المطلب الأوَّل فكان في بيان (معرفة قصد المتكلم)، في حين خُصِص المطلب الثاني لـ(إرادة الإفهام من قصد المتكلم).

وقد تضمَّن البحث خاتمة شملت ما تحصَّل من نتائج تضمنها البحث.

والله ولي التوفيق.

التـمهـيد

مفهوم الخطاب:

إنَّ الإشارة إلى الخطاب هي الإشارة إلى مفهوم اللغة التواصلي، إذ إنَّ الخطاب "وحدة تواصلية تبليغية ناتجة عن مخاطِب معيّن موجهة إلى مخاطَب معيّن في سياق معيّن"[1]، ومن جانب آخر فإنّ مفهومه التركيبي يرتبط بمفهومه الجملي؛ لأنَّ " الخطاب من حيث معناه اللغوي يدلّ على كلِّ ملفوظ أكبر من الجملة منظورًا إليه من حيث قواعد التسلسل الجملي، ومن جهة نظر اللسانيات فإنَّ الخطاب لا يمكن أن يكون سوى مرادف

للملفوظ"[٢].

أي أنَّه يمكن لأية جملة أن تكون خطابًا بغض النظر عن كونها ملفوظًا أو مكتوبًا، وأكّد ذلك الدكتور أحمد المتوكل، إذ " يُعدُّ خطابًا كلّ ملفوظ- مكتوب يشكّل وحدة تواصلية تامّة"[٣]، وهذا المنظور أتمّ من أن يكون الخطاب متتاليات جملية أو تسلسل جملي، إذ يمكن للجملة الواحدة أن تكون خطابًا، وهذا المنظور متأصّل يستقى من الذكر الحكيم، إذ يتضح مفهوم الخطاب على أنَّه كلامٌ موجّه دال أو مفهوم، ومنه قوله تعالى "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" [الفرقان:٦٣] وقوله تعالى [ربُّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا] [النبأ:٣٧].

وفي ضوء ذلك فإنَّ الخطاب يتكون من عنصرين مهمين يكوّنان الأساس الذي يؤلّف منه كلامًا تواصليًا بين المتكلمين هما:

١. المتكلم: الذي يرجع إليه تأليف الكلام وإرساله إلى من يريد به إظهار القصد، وفهم الكلام.

٢. المُخاطَب: الذي يتلقى الكلام ويرجع إليه تحليل الخطاب.

إذًا فالعملية الخطابية مع طول الخطاب أو قصره قائمة على مرسل ومرسل إليه، ومن ثمَّ فإنَّ الخطاب مراسلة لغوية يرسلها المتكلم ليتلقاها المستمع.

وما دام الخطاب يقوم على إلقاء المتكلم وتلقي المخاطَب؛ فإنَّ فيه بعدين أساسيين:

البعد الأوَّل: وسيلة لغوية لا إرشادية: فهو يتعامل مع الصورة المكتوبة أو الملفوظة حتى وإن كانت جملة واحدة[٤].

البعد الثاني: التداولي: الذي يقوم على مفهوم التواصل، ولذا فإنَّ من عناصر الخطاب الأصوات والمعجم والتركيب والمعنى والتداول[٥].

وما دام مفهوم الخطاب يقوم على فهم المخاطب وإلقاء المتكلم فإنَّ هذا المفهوم نجده متأصلًا عند القدماء، إذ ركّزوا على المتكلم والمخاطب في فهم التركيب فهمًا دقيقًا، وفي الإشارة إلى سيبويه وما دوَّنه من مفاهيم في أثر

التداول وعلم المخاطب ما لا يمكن إنكاره بهذا الصدد، إذ أطَّر ذلك في سياقات الحال، فـ" سيبويه يهتم بإرادة كلّ من المتكلِّم والمخاطب وما في نفسيهما من معنى"[٦].

وهذا المفهوم من الفهم المتحقق بين المتكلم والمخاطب هو ما يحقق البعد التداولي بينهما، أي المفهوم التواصلي، ومن جانب آخر فإنَّ الاهتمام من لدن سيبويه لغرض المتكلم وقصده يكشف عن قصد المعنى، وهذا الغرض أو القصد له أثر عند سيبويه في جعله آلية تفسيرية في توجيه الاستعمال اللغوي، ويتحقق ذلك عنده في جانبين:

الجانب الأوَّل: مراعاة قصد المتكلم في معرفة المعنى وتوجيه التركيب اللغوي على أثره، وإشارات ذلك تتضح في قول سيبويه: " ويقول الرجل للرجل لِمَ فعلت ذلك فيقول لِمَ أنَّه ظريف، قال: لِمَه، قلت: لأنَّ ذاك كذلك. وتقول إذا أردت أن تُخبر ما يعني المتكلم، أي إنّي نجدٌ إذا ابتدأت كما صحّ أي: أنا نجدٌ وإن شئت قلت: أي أنّي نجدٌ كأنّك قلت: أي لأنّي نجدٌ"[٧]، فإنَّ إرادة قصد المتكلم حصلت من المخاطَب بذكر الأخبار في الجملة (لِمَ أنَّه ظريف)، وجملة (أي أنّي نجدٌ) كأنَّها تعليل بأنْ تخبر عن نفسك أي لأنَّك ظريف، ولأنَّك نجد، ولذا ذكر التعليل سيبويه أنَّ القصد (لأنَّ ذاك كذلك) و(أي لأنّي نجدٌ).

ويتضح بعد ذلك أنَّ الخطاب " حدثٌ لغوي يرسله متكلم أو مرسِل نحو مخاطَب أو مرسَل إليه قصد إفادته بمعلومات أو أخبار جديدة في مقام محدد وباستعمال وسيلة تبليغية محددة والانطلاق من ظروف وأحوال وأوضاع مشتركة بين المتخاطبين لا يعرفها غيرهما"[٨].

وتتضح رؤيا مفهوم هذا النصّ عندما نجد أنَّ المحذوف من الكلام يحدده المخاطب بلفظة معينة لعلمه به، وإن لم يوجد دليل يدلّ من التركيب عليه لعلمه مسبقًا بذلك الحذف.

وكذا قصد المتكلم عندما يكون إفادته للمخاطب بمعلومات أو أخبار لا يعرفها غيرهما وهو ما يحقق مبدأ التعاون

في معرفة المعنى من قصد المتكلم من لدن المخاطَب كما أوضحه (غرايس)[٩].

الجانب الثَّانيّ: علم المخاطب ومعرفة المحذوف من الكلام، إذ يكون الحذف دراية من المخاطب في التفاعل والتتابع مع الكلام ليحقق الانسجام التداولي عن طريق التحريك الذهني للمخاطب على أنَّ المحذوف الدالّ عليه الدليل يقع في مسألتين:

١. علم المخاطب بالمحذوف.

٢. التواصل في إتمام الكلام من لدن المخاطب.

إذ الحذف عامل في إيجاد التفاعل والانسجام الخطابي عن طريق دراية المخاطب، فهو يصنع روح التواصل، ومن ثمَّ يحقق البعد التداولي، لذا نجد سيبويه يفسّر الحذف بعلم المخاطب لا الاقتصار بالتفسير على الاستخفاف، أي الخفّة بالكلام أو الاختصار، وكذا لم يُفسر بدلالة الدليل عليه كالذي نجده عند تصريحات بعض النحويين من القول بوجود اللفظ الدال من التركيب.

وإشارة سيبويه إلى علم المخاطب تتضح في مواضع كثيرة، ومنه قوله " إذا قلت: لا يديّ لك ولا أبا لك فالاسم بمنزلة اسم ليس بينه وبين المضاف إليه شيء نحو: لا مثل زيد...وإن أظهرت فحسن ثم تقول توكيدًا وإن علم ما تعني"[١٠].

فالنصّ يبين أهمية علم المخاطب في معرفة المحذوف من الكلام على (لك) إذ لولا علم المخاطب عن المحذوف (لك) لكان تقدير المحذوف بغير الجار والمجرور، ولكن علم المخاطب مع الاستغناء وترك المحذوف يعلم بما حُذِف أنَّ التقدير (لا أبًا لك ولا يدي لك)، والذي يعنينا في هذا المقام الجانب الثاني وهو مراعاة قصد المتكلم الذي سيرد ذكره تفصيلًا.

المطلب الأوَّل: معرفة قصد المتكلّم

يُعدُّ قصد المتكلم من السياقات التي تُحيط بالكلام فيُعرف عن طريقه تحليله ومعناه ومسوغات استعماله، وهو سياق خارجيّ، إذ هو سياق حال (مقام) فهو على ذلك ما يُحيط بالخطاب " من حال المخاطَب والمُخاطِب والغرض

الذي سيق إليه"[١١].

والغرض هو المفهوم الذي يرتبط بقصد المتكلم أو على ما سمّاه بعضهم "نفس المتكلم"[١٢]، أو "نية المتكلم"[١٣].

فهو في أوضح التعبيرات التي تلائم مستواه الذي يحلل به الكلام يُعدّ قرينة حالية[١٤].

فالمتكلم يقوم في اختيار بعض التعبيرات الكلامية وصياغاتها بصياغات تحتاج في ظاهرها إلى تفسير وتحليل مثل وجود الحذف أو التقديم والتأخير أو صياغات قد تخالف في ظاهرها القاعدة، وهذا راجع إلى "اختيار النسق التعبيري الذي يلبي حاجته وقصده وينقل المعنى الذي يبتغي إيصاله إلى المخاطب أو المتلقي مع ما قد يتخلل هذا النسق من اختصار أو تقديم أو تأخير أو تغيير لبعض الأحكام الإعرابية"[١٥].

إذ " يسعى المتكلم جاهدًا لمعرفة الحال التي يكون عليها المخاطب ليتسنى له صياغة كلامه على وفق تلك الحال؛ لأنَّ مراعاتها تسهم كثيرًا في كيفية صياغة البناء التركيبي للجملة، لذا يختلف الأسلوب الذي يتبعه المتكلم كمًّا وكيفًا مع السامع"[١٦].

ومعرفة حال المخاطب لها أثرها في تحديد صياغات التركيب وأنماط الحمل، ومن ثمّ يرتبط الكلام بالمتكلم عند مراعاة حال المخاطب، فيراعي القصد الذي يريد إيصاله فيصوغ على إثره الكلام فيتكوّن النوع الخطابي.

والقصد على وفق معرفة المتكلم وهذا المفهوم ما نجده متأصلًا عند سيبويه، فإنَّنا نلحظ مفهوم قصد المتكلم قد تأصّل عنده في مراعاة التحليل للصياغات التركيبية المتعددة، وإرجاع ذلك إلى قصد المتكلم، وما يريده من معنى يرتبط به أو بغيره وأكثر ما يشير إليه سيبويه في معرفة قصد المتكلم هو التعبير بإرادة المتكلم، ويتضح ذلك في قوله: " وإذا قلت: كنت زيدٌ مررت به ... وكذلك حسبتني عبد الله مررت به... فإنَّما أراد أن يقول: كنت هذه حالي، وحسبتني هذه حالي كما قال لقيت عبد الله وزيد يَضربه عمرو، فإنَّما قال: لقيت عبد الله وزيدٌ هذه حاله ولم يعطفه على الحديث الأوَّل ليكون في مثل

معناه... ومثل ذلك قد علمت لعبد الله تضربه، فدخول اللام يدلّك أنَّه أراد به ما أراد إذا لم يكن قبله شيء"[١٧]، فإرادة المتكلم هنا يعني بها سيبويه قصده تفسير المعنى من جملة (كنت وزيد مررت به) وجملة (حسبتني عبد الله مررت به) يريد به بيان حال المتكلم من دون وجود العطف، فأوضح سيبويه أنَّ إرادة قصد المتكلم هي (كنت هذه حالي وحسبتني هذه حالي) فجعل من المرور بزيد وعبد الله هي الحال التي يوصف بها المتكلم.

وقد يتضح مفهوم قصد المتكلم لكونه عارفًا بالخبر، ولذا نجد سيبويه يؤكد على قصد المتكلم ومراعاة المخاطب في إيصال قصده لتصحّ مخاطبته بنوع من التركيب لا يخرج عن حدِّ القصد أو المعرفة التي يشير إليها سيبويه بقوله: " ولا يستقيم أن تخبر المخاطب من المذكور وليس هذا بالذي ينزل به المخاطب منزلتك في المعرفة فكرهوا أن يقربوا باب اللبس"[١٨].

فإشارة سيبويه "ينزل به المخاطب منزلتك في المعرفة" تحقق مفهوم قصد المتكلم ومراعاة المخاطب في إيصال هذا القصد إليه وتحقق أيضًا مفهوم انَّ اللغة أداة تواصل في طبيعتها يُراعى فيها حال المتكلم والمخاطب.

ويتضح مفهوم قصد المتكلم من صياغات متعددة عند سيبويه يُستقى منها أنَّ سيبويه يُراعي فيها قصد المتكلم[١٩].

والأثر الذي يحدثه قصد المتكلم في الكلام يتحصّل عند سيبويه في أمرين:

الأمر الأوَّل: نوع يتعلق باختلاف الصياغات التركيبية، وما يحدثه من تغييرات أو مجيء على خلاف ظاهر القياس في الاستعمال من لدن المتكلم لقصده وتفصيل ذلك بعد أن نعرف الأثر الآخر مما يحدثه قصد المتكلم.

الأمر الثاني: نوع يتعلق بوحدة الصياغات التركيبية، ويتعلق هذا النوع بالتغيير الدلالي الحاصل من التنوعات التي يحدثها القصد من التغييرات الصوتية من لدن المتكلم، ففي قول سيبويه: " يقول الرجل: أتاني رجلٌ يريد واحدًا في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجلٌ، أي أتاك أكثر من ذلك أو يقول أتاني رجلٌ

لا امرأة، فيقال ما أتاك رجلٌ أي امرأة أتتك، ويقول: أتاني اليومَ رجلٌ أي في قوّته ونفاذه، فتقول ما أتاك رجلٌ، أي أتاك الضعفاء"[٢٠].

فالتحولات في النصِّ إذا جعلنا النصّ هو " البناء النظري التحتي لما يسمى عادة خطابًا"[٢١].

فإنَّ التحولات الدلالية تحدث عن طريق قصد المتكلم لما يحدثه من تغيرات صوتية؛ لأنَّ التغيرات الصوتية نابعة من تغير في القصد لديه، وهذه التغيرات هي من القرائن الصوتية التي توسم بالتنغيم[٢٢]، وهذا التنغيم المرافق لقصد المتكلم يتسع في مسارين من التوسع الدلالي في " تحولات النص وتحولات الأسلوب"[٢٣].

وعودة إلى الذي ذكرناه آنفًا عن سيبويه فإنَّ وحدة التركيب مع التنغيم أوحت إلى أكثر من صياغة تركيبية لارتباطها بقصد المتكلم أو على ما بيَّنه سيبويه إرادة المتكلم من لفظة (يريد)، فالصياغة التركيبية: ما أتاك رجلٌ أنتجت صياغات متعددة في مفهومها الدلالي وهي على النحو الآتي:

١. ما أتاك رجلٌ + تنغيم (قصد المتكلم) = أتاني رجلٌ. أنتجت إرادة أكثر من رجل، أي إرادة العدد.

٢. ما أتاك رجلٌ + تنغيم (قصد المتكلم) = أتاني رجلٌ لا امرأة. أنتجت الدلالة إرادة الجنس، أي: امرأة.

٣. ما أتاك رجلٌ + تنغيم (قصد المتكلم) = أتاني اليوم رجلٌ. أنتجت الدلالة إرادة النوع، أي: أتاك الضعفاء.

ولا يمكن معرفة هذه الدلالات إلَّا أن تُنسب إلى قصد المتكلم؛ لأنَّ التركيب واحد قد يُفهم منه دلالة واحدة أو هو الظاهر في الحكم على هذا التركيب، لكنّ قصد المتكلم مع ما أحدثه من تنوعات تنغيمية أحدث تنوعات في الدلالة.

أمَّا ما يخصّ النوع الأوّل الذي يتعلق باختلاف الصياغات التركيبية في قصد المتكلم بأكثر من غرض أو قصد لما يريده من اختلاف الصياغات التركيبية عنده، إذ نجد تنوعات في مقاصده في هذه التنوعات التركيبية ومنه ما يريد به

التنبيه، ومن ذلك قول سيبويه: " وحدثنا بعض العرب أنَّ رجلًا من بني أسد قال: يوم جَبَلَةَ واستقبله بعير أعور فتطيَّر منه فقال يا بني أسد أعور وذا ناب فلم يرد أن يسترشدهم ليُخبروه عن عَوَرِه وصحّته ولكنّه نبههم كأنه قال: أتستقبلون أعورَ وذا ناب، فالاستقبال في حال تنبيهه إيَّاهم كان واقعًا كما كان التّلوّن والتنقل عندك ثابتين في الحال الأوَّلى وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذروه"[٢٤]. قد يكتفى بالنداء أن يكون موضع تنبيه عندما تكون الصياغة من حرف نداء وذكر المنادى، إذ (ياء) النداء لذاتها تنبيه وما يُرافقها من مدّ الصوت، وقد يبتعد الكلام عن الصياغات الدالة على النداء ويأتي المتكلم بصياغات أخرى ترتبط بقصده ويُراد منها التنبيه، إذ بيّن سيبويه في نصّه المذكور آنفًا أنَّ قصد المتكلم عندما نادى (بني أسد) أنَّه لا يريد (أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته)، بل هو تنبيه لهم باستفهام ليس الغرض منه الفهم، بل هو إنكار عليهم أن يستقبلوا أعور وذا ناب، لذا قال سيبويه (فالاستقبال في حال تنبيهه إيَّاهم) فكشف عن الحال التي يستقبلون بها من تكون صفته الأعور.

وشبّه سيبويه هذا الموضع بالنصب في الاستفهام بقوله (كما كان التلّون والتنقل عندك ثابتين) أراد بقوله: " أتميميًا مرة وقيسيًا أخرى"[٢٥]، فجاء بالاسم منصوبًا ولم يأتِ به مرفوعًا لما يريده المتكلم من الكشف عن قصده فكان النصبُ حاصلًا من القصد في تنبيه المتكلم لا البناء على الفعل، ولذا قال سيبويه: " هذا باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أُخذت من الفعل"[٢٦]. أراد بذلك أن يُنبّه عن النص في (أتميميًا وقيسيًا وأعور) جاءت بالنصب لا بالرفع ليس بالبناء على الفعل بل قصد المتكلم أن يظهر المعنى الذي يقصده فشبه المُقبِل على بني أسد بالمثل السائر (أعور وذا ناب).

وهذا النحو من الصياغات التركيبية لا يقتصر على المفهوم من القواعد في ترتيب الجُمل، إذ لا يجعل من اللغة عند المتكلمين على أنَّها " منظومة من القواعد المجردة فحسب وإنَّما فهموها

على أنَّها لفظ معيّن ... لأداء غرض تواصلي...لذلك جعلوا من أهداف الدراسة النحوية إفادة المخاطب معنى الخطاب وإيصال رسالة إبلاغية إليه"[٢٧].

وكذلك فإنه "لم يكن الدرس النحوي في كتاب سيبويه قائمًا على أساس شكلاني بحت...فهو يرى ضرورة اتساق المكون التركيبي الشكلي والمكون الدلالي لتحقق الوظيفة الإبلاغية للغة العربية"[٢٨].

وهذا ظاهر في تفسير سيبويه للاستعمال اللغوي، إذ يُفسّر ما جاء من التغيرات في التركيب التي بحسب الظاهر تخالف التقعيد، ويجعل من قصد المتكلم تفسيرًا مسوغًا لهذا الاستعمال مراعاة للمعنى المراد.

ومن المواضع التي يدلّ عليها اختلاف التركيب مما يقصده المتكلم ما أشار إليه سيبويه في بيان المعنى من استعمال (أم) في تركيب خاص في ذكره الاسم الصريح بدلًا من الضمير، إذ قال: " وذلك قولك أزيدٌ عندك أم عمرو وأزيدًا لقيت أم بشرًا فأنت الآن مدّع أن عنده أحدهما لأنَّك إذا قلت أيّهما عندك وأيّهما لقيت فأنت مدّعٍ أنَّ المسؤول قد لقي أحدهما أو أنَّ عنده أحدهما إلَّا أنَّ علمك قد استوى فيهما لا تدري أيّهما هو، والدليل على أنَّ قولك: أزيدٌ عندك أم عمروٌ بمنزلة قولك أيّهما عندك أنَّك لو قلت أزيدٌ عندك أم بشرٌ فقال المسؤول لا كان محالًا كما أنَّه إذا قال أيّهما عندك فقال لا فقد أحال وأعلم أنَّك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن لأنَّك لا تسأله عن اللقى وإنَّما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيّهما هو فبدأت بالاسم لأنَّك تقصد قصد أن يبيّن لك أي الاسمين في هذا الحال وجعلت الاسم الآخر عديلًا للأوَّل فصار الذي لا تسأل عنه بينهما"[٢٩].

فقصد المتكلم من إرادة المعنى الخاص حدد الصيغة التركيبية بـ(أزيدٌ عندك أم عمرو، وأزيدًا عندك أم بشرًا) فأراد سيبويه من (أم) المتصلة من يكون عندك أو لقيت فالاسم مستفهم عنه من دون العلم بأحدهما موجود عندك أو إنَّك لقيت أحدهما، ولذا أكَّد سيبويه على

أنَّ التعبير إذا كان " من دون أم بـ(أزيدٌ وعمرو أيّهما عندك) أو (أزيدًا وبشرًا أيّهما لقيت) فإنَّ المعنى يكون (قد لقيت أحدهما أو أنَّ عنده أحدهما إلَّا أنَّ علمك قد استوى فيهما لا تدري أيّهما هو)، أي أنَّ المتكلم يقصد أنَّه لا علم له بأيّهما موجود عندك أو الذي لقيت فكان التعبير بـ(أم) المتصلة مع ذكر الاسم الصريح من دون الضمير الدال عليهما. فالمعنى الذي أُريد بيانه قيّد المتكلم عالمًا بأنَّ أحدهما عنده، ولكن لا يعلم من هو لا مستفهمًا عن وجود أحد أو لا " فنجد سيبويه ينفذ إلى دلالة (أم) على التسوية على وفق قصد المتكلم وتواصله مع مخاطبه، فالمتكلم يسأل عن شيئين أو أكثر وهو يعلم إنَّ الفعل أو الخبر واقع بأحدهما، إلَّا أنَّ علمه قد استوى فيهما فلا يدري أيّهما هو"[٣٠].

ولذا نجد سيبويه يبيّن أنَّ قصد المتكلم لا الاستفهام عن وجود الشيء أو اللقيّ له بل الاستفهام عن الاسم الذي يُستفهم عنه بالوجود أو اللقيّ، فقال: (لأنَّك تقصد قصد أن يبيّن لك أيّ الاسمين في هذا الحال) أي حال أنَّه موجود أو أنَّه لقي فلان، ولذا توسطت (أم) ففهم قصد المتكلم عن طريقها.

وقد يكون توجيه الحركة الإعرابية بسبب قصد المتكلم وما يريد توضيحه من معنى، إذ الحركة الإعرابية واحدة من القرائن الدالة على المعنى[٣١]، فإذا كان الاحتكام إلى الجانب الوظيفي من وجود الفعل على أن يكون هو العامل للنصب في الاسم أو يكون فيه الرفع للابتداء، فإنَّ الطابع التفسيري لقصد المتكلم قد ينأى عن هذا التحليل القواعدي الذي يمثل الطابع الشكلي للصياغات التركيبية، إذ يُفسّر وجود الحركة الإعرابية وتغيراتها في ضوء قصد المتكلم لما يريده من معنى، إذ يُعدّ قصد المتكلم بمثابة العامل الذي يتحكّم في إظهار الحركة الإعرابية إذ قد يكون الرفع هو المستعمل في لغة الكلام بينما نجد لغة الاستعمال على النصب كلّ ذاك مراعاة لقصد المتكلم فيما يريد إظهاره من معنى وهذا المفهوم أعمل فيه سيبويه فكره وجعله آلية تفسيرية لتسويغ الاستعمال، ومن ذلك قوله:

" أمَّا العبيدُ فذو عبيدٍ، وأمَّا العبدُ فذو عبدٍ، وإنَّما أُختير الرفع لأنَّ ما ذكرت في هذا الباب أسماء والأسماء لا تجري مجرى المصادر... كأنَّهم قالوا أمَّا العبيدُ فأنت فيهم أو أنت منهم ذو عبيدٍ، أي لك من العبيد نصيب... وزعم يونس أنَّ قومًا من العرب يقولون أمَّا العبيدَ فذو عبيدٍ، وأمَّا العبدَ فذو عبدٍ يجرونه مجرى المصدر سواء... ولو قال أمَّا العبيدُ فأنت ذو عبيد يريد عبيدًا بأعيانهم قد عرفهم المخاطب كمعرفتك. كأنك قلت: أمَّا العبيدُ الذي نتعرف لهم لم يكن إلَّا رفعًا...وإنَّما جاز النصب حين لم يجعلهم شيئًا معروفًا بعينه"(٣٢).

فالتعليل والافتراض عند سيبويه للرفع في (أمَّا العبيدُ فذو عبيدٍ) على أنَّ الاسم لا يجري مجرى المصادر لكنّ التعليل الآخر له جعله مرافقًا للمعنى وإرادة قصد المتكلم، إذ هو المسوّغ لهذا الرفع حيث قال (أمَّا العبيدُ فذو عبيدٍ، يريد عبيدًا بأعيانهم قد عرفهم المخاطب) فتعيين العبيد المقصودين بأعيانهم لا غيرهم هم المقصودين عند المتكلم، وعرفهم المخاطب.

أمَّا في النصب فقد علَّل سيبويه بإجراء الأسماء مجرى المصادر والتعليل الآخر أرجعه لقصد المتكلم، لذا قال: (وإنَّما جاز النصب حين لم يجعل – المتكلم– شيئًا معروفًا بعينه)، ولذا أُختير الرفع؛ لأنَّ العبيدَ معروفون بأعيانهم.

المطلب الثاني: إرادة الإفهام في قصد المتكلم.

يمكن أن نختزل قصد المتكلم في بيان ما يريد إيصاله إلى المخاطب من معنى وإفهام في جانبين:

١. الجانب الأوَّل: ما يعنيه المتكلم من قصد لنفسه:

قد يتخذ من بعض التراكيب ما يريد به بيان قصده لنفسه عند إفهامه المخاطب؛ لأنَّه يريد أن يفصح عمّا في نفسه ويجعل من صياغة التراكيب التي يستعملها ما يحتاج إلى التفسير في تسويغ استعمالها، ولا نلحظ إلَّا القصد في تفسير هذا الاستعمال وتسويغه، فإذا كان الاحتكام إلى القاعدة هو الطابع التفسيري للاستعمال اللغوي فإنَّ سيبويه

مع تمسكه بقواعد اللغة العربية " نجده في كثير من الحالات يُجيز بعض التراكيب أو يمنعها لأسباب لا تتصل بالنحو بما هو أحكام إعرابية أو قواعد ترسم حدود التأليف من تقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير وما سوى ذلك...بل يجعل طريقة العرب في الكلام هي الفيصل في ذلك، وبخاصة إذا أُمن اللبس، وفَهِم المخاطب مُراد المُتكلم"(٣٣).

وفي ضوء قصد المتكلم فإنَّنا نجد قصد المتكلم هو المتحكم في بعض التراكيب والمفسرًا لها، قال ابن جنيّ " وقد يُحذف المميز وذلك إذا عُلِم من الحال (حكمًا ما) كان منها به وذلك في قولك: عندي عشرون، واشتريت ثلاثين... فإن لم يُعلم المراد لزم التمييز إذ قصد المتكلم الإبانة، فإن لم يرد ذلك وأراد الإلغاز وحذف جانب البيان لم يوجب على نفسه ذكر التمييز وهذا إنَّما يصلحه ويفسده غرض المتكلم وعليه مدار الكلام"(٣٤).

وهذا المفهوم نجد تأصيله التفسيري عند سيبويه، إذ وظّف قصد المتكلم لبيان وتفسير الاستعمال عندما يُفصح المتكلم لبيان القصد لنفسه وإيصاله إلى المخاطب ومن ذلك قوله: "إنَّ رجلًا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يُخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبدُ الله منطلقًا، وهو زيدٌ منطلقًا كان محالًا لأنَّه إنَّما أراد أن يُخبرك بالانطلاق ولم يقُلْ هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية لأنَّ هو وأنا علامتان للمضمر وإنَّما يضمر إذا علم أنَّك قد عرفت من يعني"(٣٥).

ففي هذا النَّصّ جعل سيبويه الطابع الاجتماعي في اللغة مع إرادة قصد المتكلم من العوامل التي يُفسّر بها الاستعمال اللغوي فذكر الضمير (أنا) و(هو) لا مسوّغ له ما دام المخاطب هو من معرفة وخاصة المتكلم عندما يُريد المتكلم أن يفصح عن قصده لنفسه والإخبار عن حاله، وجعل سيبويه ذكر الضمير في (أنا عبد الله منطلقًا) و (هو زيد منطلقًا) محالًا لِعلم المخاطب لما تعني لنفسك، ولكن كان حسنًا ذكر الضمير " لو كان خلف حائطٍ أو في موضع تجهله فيه فقلت من أنت فقال أنا عبد الله منطلقًا في حاجتك

كان حسنًا"[٣٦]، فالمتكلم عندما يريد أن يُبيّن ما في نفسه من إخبار أو ذكر للحال تقيّده إرادته في تحديد الصياغة التي تلائم السياق الذي يرسل كلامه فيه.

ولذا " يتأثر مستوى الحديث تبعًا لقصد المتكلم مع مراعاة المخاطب ثقافيًا واجتماعيًا... وربَّما كان من شأن خطاب المتكلم أن يتأثر بالحالة النفسية للمتكلم ذاته"[٣٧]. إذ قد يكون القصد من المتكلم إيضاح المعنى الذي يتصل به من الإخبار، وقد يكون أسلوب الاستفهام الحقيقي من الأساليب التي ترتكز على إيضاح قصد المتكلم لنفسه عندما يكون المتكلم خالي الذهن في طلب الفهم للمعلومة والإخبار عن الشيء ومسائل ذلك واضحة عند سيبويه[٣٨].

٢. الجانب الثاني: ما يعنيه المتكلم من قصده للمخاطب نفسه:

يُراعي المتكلم في قصده من بيان المعنى والإخبار أو الأمر أو النهي مراعاة حال المخاطب فيكون القصد موجهًا للمخاطب وهذا هو الغالب من قصد المتكلم، فالتنبيه واحد من هذه المسائل التي يريد المتكلم في قصده أن يعلم المخاطب نفسه ما يوجهه له المتكلم، فالتحذير مثلًا تنبيه للمخاطب، إذ " التحذير: تنبيه المخاطب على أمر مكروه يجب الاحتراز منه"[٣٩]، فالاحتراز المنبّه عليه أو ما يُتخَوَّف منه على المخاطب حتى لا يقع فيه.

والصياغة التركيبية مع الحذف هي الصياغة الغالبة التي تكشف عن مراد أو قصد المتكلم في المفاهيم التواصلية بين المتكلمين، وإذا ما رجعنا إلى التحذير وجدنا إرادة المتكلم في الاقتصار والحذف واحدةٌ من المسائل التي يُراعي بها المتكلم حال المخاطب، ومن ذلك قول سيبويه: " وحذفوا الفعل من إيَّاك لكثرة استعمالهم...ومن ذلك رأسه والحائط كأنَّه قال: خلّ أو دَعْ رأسه والحائط، فالرأس مفعول معه فانتصبا جميعًا...وإن شئت لم يكن فيه ذلك المعنى، فهو عربيٌّ جيد كأنّه قال عليك رأسك وعليك الحائط...ومثل ذلك أهلَكَ والليل كأنَّه قال بادِر أهلَك قبل الليل وإنَّما المعنى أن يحذّره أن يُدركه

الليل والليلُ محذّر منه"[٤٠]. ومع التعليل بكثرة الاستعمال في حذف الفعل فإنَّ سيبويه جعل من إرادة وقصد المتكلم أن يكون معنى الكلام التحذير هو المسوّغ الآخر لبيان الحذف.

ولذا كان الاستعمالان (رأسه والحائط) و(عليك رأسك وعليك الحائط) جائزين ما دامت إرادة المعنى التحذير للمخاطب؛ ولذا قال سيبويه: " فليس ينقض هذا ما أردتَ في معنى مع من الحديث"[٤١].

ويتضح مما مرَّ أنَّ مسوّغ التراكيب لمراعاة قصد المتكلم حال المخاطب عندما أوضح سيبويه المعنى المتعلق بالتعريف للصفة، قال: " وإذا قال الطويل فإنَّما يريد أن يعرفك شيئًا بقلبك ولا يريد أن يعرفكه بعينك فلذلك صار هذا يُنعت الطويل..."[٤٢] ، فكلُ ذلك إذا كان المتكلّم يريد أن يُعرّف المخاطب ما في نفسه.

الخاتمة ونتائج البحث

١. جعل سيبويه الطابع الاجتماعي في اللغة مع إرادة قصد المتكلم من العوامل التي يُفسّر بها الاستعمال اللغوي فذكر الضمير (أنا) و(هو) لا مسوّغ له ما دام المخاطب هو من معرفة وخاصة المتكلم عندما يُريد المتكلم أن يفصح عن قصده لنفسه والإخبار عن حاله.

٢. أوضحت لنا نصوص سيبويه التي سقناها في طيات البحث الوجهة المعرفية الكبيرة له بخصائص الكلام عند العرب بأحواله المختلفة، مع الأخذ بمقام ذلك الكلام.

٣. لحظنا أنَّ مفهوم قصد المتكلم قد تأصّل في مراعاة التحليل للصياغات التركيبية المتعددة وإرجاع ذلك إلى قصد المتكلم، وما يريده من معنى يرتبط به أو بغيره وأكثره ما يشير إليه سيبويه في معرفة قصد المتكلم هو التعبير بإرادة المتكلم.

٤. أفرز لنا البحث أنَّ قصد المتكلم مع ما أحدثه من تنوعات تنغيمية مجموعة من التنوعات في الدلالة للجملة الواحدة.

٥. جعل سيبويه من قصد المتكلم تفسيرًا مسوغًا للاستعمال اللغوي مراعاة للمعنى المراد، إذ فسّر ما جاء من التغيرات في التركيب التي بحسب الظاهر خالفت التقعيد في أمثلته التي ساقها.

الهوامش:

١- لسانيات الخطاب الأدبي: ١٣.

٢- المصدر نفسه: ١٤.

٣- الوظيفة بين الكلية والنمطية، د.أحمد المتوكل:٢٢.

٤- يُنظر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب، د هادي نهر: ١٣٢، ١٣٥.

٥- لسانيات الخطاب الأدبي:١٦.

٦- الدراسة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه، د. محمد سالم صالح:٤٠٤.

٧- الكتاب:٣/ ١٢٤.

٨- آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه (بحث)، د. بشير ابرير:١٢.

٩- يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود أحمد نحلة:٣٤-٣٥.

١٠- الكتاب:٢/ ٢٨٠.

١١- السياق القرآني وأثره في التفسير، عبد الرحمن بن عبدالله:١٩.

١٢- يُنظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي:٤/ ٢٤٣، والفصول المفيدة للغلاييني:١٢٤، وفي النحو العربي نقد وتوجيه، د.مهدي المخزومي:٢٢٥.

١٣- يُنظر: المقتضب:٢/ ٢٤.

١٤- يُنظر: الدلالة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه:٤١٨-٤١٩.

١٥- أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبد الله الخالدي:٣٢.

١٦- سياق الحال في كتاب سيبويه، أسعد خلف العوادي:٥٧.

١٧- الكتاب:١/ ١٤٩-١٥٠.

١٨- المصدر نفسه:١/ ٤٨.

١٩- يُنظر: المصدر نفسه:١/ ١٢٤، ٢١٦، ٣٥٤ و٢/ ٣٦٣.

٢٠- المصدر نفسه:١/ ٥٥.

٢١- لسانيات النَّص: مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي:٢٩.

٢٢- يُنظر: المعنى في تفسير الكشاف للزمخشري، د. نجاح فاهم العبيدي: ٣٥-٣٦.

٢٣- يُنظر: المصدر نفسه:٣٩.

٢٤- الكتاب:١/ ٣٤٣.

٢٥- الكتاب:١/ ٣٤٣.

٢٦- المصدر نفسه.

٢٧- سياق الحال في كتاب سيبويه:٥٦، ويُنظر: التداولية عند العلماء العرب،

مسعود صحراوي:٣٤.

٢٨- نظرية المعنى في كتاب سيبويه، عماد زاهي ذيب نعامنة:١٨.

٢٩- الكتاب:٣/ ١٦٩-١٧٠.

٣٠- سياق الحال في كتاب سيبويه:٢٠٨.

٣١- يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسّان:١٨٢.

٣٢- الكتاب:١/ ٣٨٨-٣٩٠.

٣٣- أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية: ٩٢.

٣٤- الخصائص: ٢/ ٣٠٨.

٣٥- الكتاب:٢/ ٨٠-٨١.

٣٦- المصدر نفسه:١/ ٨١.

٣٧- دلالة السياق، د. درّة الله بن ردة الطلحي:٦٠٤.

٣٨- يُنظر: الكتاب:١/ ٩٩، ١١٢، ٣٤٠.

٣٩- شرح ابن الناظم:٤٣٢.

٤٠- الكتاب:١/ ٢٧٤-٢٧٥.

٤١- المصدر نفسه:١/ ٢٧٥.

٤٢- المصدر نفسه:٢/ ٧.

المصادر والمراجع:

١- أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبد الله الخالدي (رسالة ماجستير) الجامعة الأمريكية في بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م.

٢- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود أحمد نحلة، ط١، دار المعرفة الجديد، القاهرة-مصر، ٢٠٠٢م.

٣- آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه (بحث)، د. بشير ابرير، جامعة باجي مختار- عنابة، الجزائر.

٤- البرهان في علوم القران، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة- مصر، ١٩٧٢م.

٥- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م.

٦- الخصائص لابن جنّي، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٤١٦هـ.

٧- الدراسة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه، د. محمد سالم صالح، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة-مصر، ١٤٠٢هـ.

٨- دلالة السياق، د. درّة الله بن ردة الطلحي، ط١، مطبعة جامعة أم القرى، السعودية،١٤٢٤هـ.

٩- الدلالة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه، بان صالح مهدي، ط١، دار الفراهيدي، بغداد -العراق،٢٠٠٦م.

١٠- سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة، د. أسعد خلف العوادي، ط١، دار الحامد للطباعة، عمان- الأردن، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

١١- السياق القرآني وأثره في التفسير، عبد الرحمن بن عبدالله المطيري (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١٢- شرح ابن الناظم، لأبي عبد الله بدر الدين محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، منشورات محمد علي

بيضون، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

١٣- الفصول المفيدة للغلاييني، ط١، دار البشير، عمان الأردن، ١٩٩٠.

١٤- في النحو العربي نقد وتوجيه، الدكتور مهدي المخزومي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة- مصر، ١٣٨٦م.

١٥- الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩م.

١٦- لسانيات الخطاب الأدبي، محمد عزّام، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ٢٠٠٣م.

١٧- اللسانيات الاجتماعية عند العرب، د هادي نهر، دار الاسراء، عمان الأردن، ٢٠١٢م.

١٨- لسانيات النَّص: مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١م.

١٩- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسّان، الدار البيضاء، دار الثقافة.

٢٠- المعنى في تفسير الكشاف للزمخشري، د. نجاح فاهم العبيدي، ٢٠٠٩م.

٢١- المقتضب/ المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب- بيروت ١٩٦٣.

٢٢- نظرية المعنى في كتاب سيبويه، عماد زاهي ذيب نعامنة (رسالة ماجستير)، جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٩م.

٢٣- الوظيفة بين الكلية والنمطية، د.أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، ١٩٨٩.